الفذلكة بين المفسرين والطاهر ابن عاشور: تعريف وتأصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

المقدمة

لم يكن البحث عن كلمة الفذلكة من قبيل الصدفة، وإنما ورد نتيجة لقراءة متأنية في تفسير الطاهر ابن عاشور، فإن كان غيره من المفسرين قد ذكر هذه الكلمة مرة، أو أكثر، فإنما جاء ذكرها ذكرًا عابرًا دون تعمق في معناها اللغوي والاصطلاحي؛ بل إن أحدًا منهم لم يتطرق إلى خصائصها، ولا بحث في دلالتها اللغوية، أو النحوية.

ولما كان الطاهر بن عاشور قد أكثر من ذكرها، وبيّن معناها وخصائصها؛ لذلك رأينا أن نبحث فيها بحثًا دقيقًا شاملاً، لنقف عند هذه الكلمة التي لم يأت على ذكرها الكثير من المفسرين قديمًا وحديثًا، والتي أصبحت منسية الآن عند كثير من الناس، لكن لها خصائص ودلالات عند الطاهر بن عاشور تزيد الكلام رونقًا وجمالًا، وتضيف إلى المعنى تأكيدًا وتركيزًا وتلخيصًا لأهم المقصود من الكلام الذي يسبقه.

ولقد ارتأينا أن يكون عنوان البحث عن تعريف وتأصيل وخصائص لفظ الفذلكة عند ابن عاشور وعند غيره من المفسرين في أربعة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: تعريف الفذلكة لغة واصطلاحًا :

أولاً: الفذلكة لغة :

عند البحث عن تعريف الفذلكة في كتب معاجم اللغة العربية، نجد أن أول من ذكرها هو الصغاني (ت ٦٥٠هـ)، إذ يقول: "وقولهم: فَذَلِكَ حِسَابُهُ؛ أي: أَنهَاءُ وَفَرَعٌ مِنْهُ، كَلِمَةٌ مُخْتَرَعَةٌ، أُخِذَتْ مِنْ قَوْلِ الْحَاسِبِ، إِذَا أَجْمَلَ حِسَابَهُ: فَذَلِكَ كَذَا وَكَذَا عَدَدًا أَوْ كَذَا وَكَذَا قَفِيرًا؛ وهذه الكَلِمَةُ مِثْلُ قَوْلِهِمْ: فَهَرَسَ الْأَبْوَابَ فَهَرَسَةً، إِلَّا أَنَّ (فَذَلِكَ) ضَارِبٌ بِعَرَقٍ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَ(فَهَرَسَ) مُعَرَّبٌ".^(١)

(١) التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، الصغاني، الحسن بن محمد بن الحسن (ت ٦٥٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبدالعليم الطحاوي وآخرون، دار الكتب_ القاهرة ٢٢٧/٥-٢٢٨: (فذلك).

أما الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ) فقد عرف الفذلكة كتعريف الصغاني، فقال: "فَذْلَكَ حِسَابُهُ: أنهاه وقرع منه، مُخْتَرَعَةٌ من قوله إذا أُجْمِلَ حِسَابُهُ: فَذْلِكَ كذا وكذا".^(١) إلا أنه لم يبين قدمها في العربية. ونص مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) في كتاب تاج العروس على أن الجوهرية (ت ٣٩٣هـ)، وابن منظور (ت ٧١١هـ) قد أهملاه. ونقل نص الصغاني عن الفذلكة.^(٢) وأما بطرس البستاني (ت ١٣٠٠هـ) فتوسع في تفسير الفذلكة فقال: "فَذْلَكَ حِسَابُهُ فذلكة، أنهاه وفرغ منه، وهي مخترعة من قول الحاسب إذا أجمل حسابه، فذلك كذا وكذا، إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته، والفذلكة: مصدر يراد بها في كلام العلماء إجمال ما فصل أولاً، وكل ما هو نتيجة متفرعة على ما سبق، حساباً كان، أو غيره؛ ومجمل الكلام وخلصته. ونظير هذا الأخذ، أخذهم البسمة والحمدلة ونظائرهما، وهذا يسمى بالنحت، وقد يكون ذلك في النسب، ك(عقبسي)، (عبشمي) في عبد القيس، وعبد شمس، إلى غير ذلك".^(٣) إذ أشار إلى قضيتين: الأولى معنوية: وهي أن في الفذلكة إجمال بعد تفصيل، والثانية لفظية: وهي أن الفذلكة منحوتة من كلمتين (الفاء وذلك).

وذهب أحمد رضا (ت ١٣٧٢هـ) إلى القول بأن الفذلكة: جملة عدد قد فصل، وهي كلمة مولدة.^(٤) فهو يرى أنها كلمة مولدة، ولدتها العرب بعد عصور الاحتجاج بطريقة النحت. وأما الدكتور أحمد مختار عمر (ت ١٤٢٤هـ): فبدأ حديثه ببيان تصريفات الفذلكة، ومعناها وبيان أصلها الاشتقائي، فقال: "فَذْلَكَ يَفْذَلِكُ، فذلكة، فهو مُفْذَلِكٌ، والمفعول مُفْذَلَكٌ. فذلك كلامه: أجمل ما فصله؛ وهو منحوت من (فذلك كذا وكذا)". ثم عزج على تطور دلالة الفذلكة في لغة العامة لتدل على التلاعب بالألفاظ، فقال: "فذلك فلان": تلاعب بالكلمات موهماً صدق حديثه، لم يستطع إقناع خصمه رغم تفذلكه في الكلام. ثم ختم حديثه بأن الفذلكة مفرد: جمعه فذلكات (لغير المصدر).^(٥)

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ٨ ط، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م: ٩٥٠ (فذلك).

(٢) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، محمد مرتضى، تحقيق: جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، ١٣٨٥-١٤٢٢هـ/١٩٦٥-٢٠٠١م ٢٧/٢٩٣: (فذلك).

(٣) محيط المحيط، بطرس البستاني: ٦٨٠-٦٨١.

(٤) ينظر: متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة)، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م ٤/٣٧٤ (فذلك):

(٥) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م ٣/١٦٨٣ (فذلك).

الفذلكة بين المفسرين والظاهر ابن عاشور: تعريف وتأصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

وقيل في المعجم الوسيط: "فذلك الحساب أنها وفرغ منه، وهي منحوتة من قوله: فَذَلِكَ كَذَا وَكَذَا، إذا أجمل حسابه. والفذلكة: مُجْمَلٌ مَا فَصَلَ وَخَلَصْتَهُ (محدثه)".^(١)

ولا يخفى أن (فَذَلِكَ) هذه مكونة من: (الفاء) التي قد تفيد العطف أو الاستئناف بحسب ما قبلها، ثم (ذا) اسم الإشارة الذي حذف ألفه خطأً للتخفيف، ثم (اللام) حرف للدلالة على البعد، ثم (الكاف) حرف الخطاب، أي أنها تحوي أربع كلمات معاً، فُنَحِتَتْ منها كلمة (فَذَلِكَ) التي تعني الخلاصة والمُجْمَل، وتُجْمَع على (فَذَلِكَات) لغير المصدر، كما أنها مصدر للفعل (فَذَلِكُ).^(٢)

مع ملاحظة الفرق بين اسم الإشارة (فذلك) مع أصل كلمة (فذلك) عند جمع الفذلكة من دخول الألف بين الذال واللام، وكذلك ينبغي أن تُفَرَّق بين قولنا (فذلك) بعد دخول (الفاء) على اسم الإشارة (ذلك) من (فذلك) عند قولنا (فذلك الحساب) أن الفاء في الأخيرة من أصل الكلمة. قال نصر الهوريني: "وأما الألف التي في (فَذَلِكَ) -الذي هو جمع (فَذَلِكَة)- فليست من موضوع الكلام الذي هو (ذَا) الإشارية؛ لأن الفاء فيه من بنية الكلمة، فلا يشتهه عليك، فَذَلِكَ بِفَذَلِكَ".^(٣) أمّا أصل كلمة (الفذلكة) فقد اتفق العلماء على أنها كلمة منحوتة،^(٤) من قولهم: (فذلك كذا وكذا) ك(بسم) من (بسم الله)، و(حمدل) من (الحمد لله)، و(سبحل) من (سبحان الله)، ويجمع على (فَذَلِكُ).^(٥)

وهذا النحت على قسمين في لسان العرب، منه ما هو قياسي، ومنه ما هو سماعي،^(٦) فلا ي

القسمين يمكن تنسيب الفذلكة؟

(١) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، وآخرون، دار الدعوة ٦٧٨/٢ (فذلك)

(٢) ينظر: مقال بعنوان: سمات لغوية، كلمة فذلكة: أ.د. أحمد عادل عبد المولى، أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد، بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، ٢٣ تشرين ١/أكتوبر ٢٠١٧ م. جريدة الفتح اليوم الإلكترونية. <http://www.alfathalyom.com/index.php/%D>.

(٣) المَطَالَعُ النَّصْرِيَّةُ لِلْمَطَابِعِ الْمَصْرِيَّةِ فِي الْأَصُولِ الْخَطِيَّةِ، أبو الوفاء الهوريني، نصر بن الشيخ نصر يونس الوفايي، تحقيق: د. طه عبدالمقصود، مكتبة السنة - القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. ٣٧٢:

(٤) ومعنى النحت كما قال ابن فارس: "أَنْ تُؤَخَذَ كَلِمَتَانِ وَتُنْحَتَ مِنْهُمَا كَلِمَةٌ تَكُونُ آخِذَةً مِنْهُمَا جَمِيعًا بِحَظِّ. وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الْخَلِيلُ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَيْعَلُ الرَّجُلِ، إِذَا قَالَ حَيَّ عَلَيَّ. وَمِنْ الشَّيْءِ الَّذِي كَأَنَّهُ مُنْفَقٌ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: عَبْسَمِيَّ. وَقَوْلُهُ: تَضْحَكُ مِنِّي شَبْحَةً عَبْسَمِيَّةً". والغرض منه تسهيل التعبير عن معنى معين عن طريق اختصار الكلام الكثير في كلمة واحدة. مقاييس اللغة: ٣٢٨/١.

(٥) ينظر: عنابه القاضي وكفاية الراضي = حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي: ٣٨٩/٧.

(٦) ينظر: شرح ألفية ابن مالك، الحازمي، أبو عبدالله أحمد بن عمر بن مساعد، ٤/١.

هذا ما وقع فيه الاختلاف، فالذين ذهبوا إلى قياسيتها قالوا بأنها مولدة،^(١) وأنها مصنوعة، صنعها المتأخرون، لم ينطق بها من يحتج بلسانه.^(٢)

أما الذين قالوا بأنها سماعية فاحتجوا بأن الكلمة وردت في كلام الأولين، ومن ذلك ما نقله عبد السلام هارون (ت ١٤٠٨ هـ) عن صاحب المعجم الوسيط بأن العبارة (محدثة)، إذ قال: "إن الكلمة مولدة توليداً قديماً جداً، فقد وجدتها في الفهرست لابن النديم بمعنى (نهاية التأليف وحصيلته)^(٣)، إذ قال ابن النديم (ت ٤٣٨ هـ) في ترجمة أبي عمر الزاهد (ت ٣٤٥ هـ): "ثم جمع الناس على قراءة أبي إسحاق الطبري (ت ٣٥٥ هـ)، وسمّى هذه القراءة الفذلكة"^(٤). وعقب عليه عبد السلام محمد هارون بقوله: "وكانت وفاة ابن النديم أيضاً سنة (٤٣٨ هـ)، فالكلمة عمرها أكثر من ألف سنة؛ وليست محدثة كما ذكر المعجم الوسيط"^(٥).

فعلى هذا الرأي الأخير تكون كلمة (الفذلكة) ضاربة بعرق في العريّة كما ذكر ذلك الصغاني. وعمرها أكثر من ألف سنة.^(٦)

ثانياً: الفذلكة اصطلاحاً :

عرّف الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ) في كتابه شفاء الغليل: الفذلكة بأنها: إجمالٌ عددٍ فصّلَه قبله، واستشهد بقول المتنبي^(٧) :

نَسَقُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ مُقَدِّمًا وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرًا

قال الواحدي (ت ٤٦٨ هـ) في شرح البيت: "يقول: جمع لنا الفضلاء في الزمان، ومضوا متتابعين متقدمين عليك في الوجود، فلما أتيت بعدهم كان فيك من الفضائل ما كان فيهم، مثل الحساب يذكر تفاصيله أولاً، ثم يجمل على تلك التفاصيل، فيكتب في مؤخر الحساب (فذلك كذا وكذا) فيجمع في الجملة ما ذكر في التفصيل، كذلك أنت جمعت فيك من الفضل ما يفرق فيهم، وهذا البيت ينظر إلى قول من قال، وفي الناس مما خصصتم به، تفاريق لكن لكم مجتمع"^(٨).

(١) من الذين قالوا بأن الفذلكة مولدة: شهاب الدين الخفاجي في شفاء الغليل (٢٠٥)؛ وأحمد رضا في معجم متن اللغة

(٤/٣٧٤)؛ وعبدالغني بن علي الدقر في معجم القواعد العربية: ٢/٢٣٧، وصاحب كتاب المعجم الوسيط: ٢/٦٧٨.

(٢) ينظر: عناية القاضي: ٣٨٦/١.

(٣) كناشة النوادر، عبدالسلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) مكتبة الخانجي، ط ١، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م. ١٧:

(٤) الفهرست، ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي (ت ٤٣٨ هـ) تحقيق: إبراهيم

رمضان، دار المعرفة - بيروت/ لبنان: ١٠٢.

(٥) كناشة النوادر: ١٧.

(٦) ينظر: التكملة والذيل لكتاب تاج اللغة: ٥/٢٢٧.

(٧) ديوان المتنبي: ٥٢٦.

(٨) شرح ديوان المتنبي، الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ): ٣٦٦-٣٦٧.

الفذلكة بين المفسرين والظاهر ابن عاشور: تعريف وتأصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

ثم نقل الخفاجي عن الواحدي أن: "الفذلك جمع فذلكة، وهي جملة الحساب، لقولهم فيها: فذلك كذا".^(١) وأضاف: أنها لفظة منحوتة مولدة أيضاً، وليس معرّبة، فهي مخترعة من قوله: إذا أجمل حسابه، فذلك كذا وكذا. وأنهى كلامه بأن الفذلكة لفظة سمعتها وعرفت معناها.^(٢) وذكر الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) أن: "الفذلكة: هو مأخوذ من قول الحُساب (فذلك كان كذا)، فذلك إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته، ثم أطلق لفظ الفذلكة لكل ما هو نتيجة متفرعة على ما سبق حساباً كان أو غيره، ونظير هذا الأخذ أخذهم نحو البسملة والحمدلة ونظائرهما من الكلمات المركبة المعلومة، وهذا يسمى بالنحت، وقد يكون مثل ذلك في النسب كعقبسي وعبشمي إلى غير ذلك".^(٣) وذهب التهانوي (ت ١١٥٨هـ): إلى أن الفذلكة يقصد بها في كلام العلماء إجمال ما فصل. ويُقال أيضاً: إن الفذلكة بمعنى مجمل الكلام وخلصته. وقد يراد بها النتيجة لما سبق من الكلام والتقرير عليه كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. إذ نقل عن جده في حاشية البيضاوي^(٤) أنها فذلكة التقرير، يعني أن فذلكة الحساب كما تتفرع على التفصيل السابق كذلك حكم الاعتداء متفرع على قوله تعالى: ﴿وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ﴾ نتيجة له، وليس معناه أنه إجمال لما تقدم، إذ لا تفصيل فيما تقدم. ثم قال: "وفذلكة الحساب هي مجمل تفاصيله بأن يقال بعدها فذلك كذا. ومن فذلكة الحساب قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد قوله ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾... فالفذلكة مأخوذة من قولهم فذلك كذا كالبسملة والحمدلة والله أعلم".^(٥)

وفي موجز دائرة المعارف الإسلامية الفذلكة: "خلاصة، أو مجمل، وهي مشتقة من الفعل العربي (فذلك)، وهي من قول الحاسب إذا أجمل حسابه: فذلك كذا وكذا، إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته. وبجانب الاستخدام الرياضي لهذا المصطلح، فإنه استُخدم كذلك في تلخيص العرائض والتقرير، أو غير ذلك من الوثائق؛ ومثال ذلك: التقارير الموجزة عن الشكاوى المقدمة للديوان

(١) شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل، شهاب الدين الخفاجي: ٢٠٥.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٢٠٥.

(٣) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني القريني (ت ١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت: ٦٩٦-٦٩٧.

(٤) لم أعثر على الكتاب، ولا على ترجمة لجه.

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، محمد بن علي بن القاضي محمد حامد (ت بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، ترجمة د. عبدالله الخالدي، مكتبة لبنان/ ناشرون - بيروت، ط ١٩٩٦، م ٢/ ١٢٦٥-١٢٦٤.

الهمايوني^(١) (في الدولة العثمانية). وقد اكتسب هذا المصطلح معنى (الخلاصة الوافية) مع التوسع في استخدامه، وهو مستخدم بهذا المعنى في عنوانين لعمليين مشهورين عن التاريخ العثماني، كتَبَ أحدهما في القرن السابع عشر، كاتب جلبي^(٢)؛ وكتب الآخر في القرن التاسع عشر أحمد وفاق باشا^(٣).^(٤)

وقال صاحب معجم مصطلحات المخطوط العربي: "فذلكة: المختصر المفيد من كل شيء. ويُطْلَق على المختصرات، ولاسيما التاريخية".^(٥)

ومن معاني الفذلكة في القانون الجنائي: أنها تشير إلى مجمل التحقيقات التي قام بها المحقق، وأنها تمثل النتيجة التي توصل إليها، وتُعرف باسم (تقرير المحقق) الذي يكون فيه خلاصة التحقيقات.^(٦)

ولم يرد مصطلح الفذلكة عند البلاغيين بهذا اللفظ، ولكنهم ذكروا معنى المصطلح في باب الإطناب عند الحديث عن الإجمال بعد التفصيل، فممن ذكرها أولاً: الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) عندما تكلم عن الإطناب، وذيلَه بأن هنالك مواضيع أخرى غير الإيضاح بعد الإبهام، والتدليل والاعتراض، فمنها قولهم: (رأيتُه بعين)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: من الآية ١٥]. إذ من المعلوم أن القول لا يكون إلا في اللسان، ولكنه

(١) الديوان الهمايوني: دائرة حكومية مرموقة في الدولة العثمانية، وظيفتها مناقشة القضايا السياسية والإدارية والعسكرية والشرعية والمالية... إلخ، من الدرجة الأولى والثانية، وإصدار قرارات بشأنها، وهي تشبه إلى حد كبير مجلس الوزراء في الوقت الراهن. المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، د. سهيل صايبان، تحقيق: عبدالرزاق محمد حسن بركات، ت-١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م (١١٩).

(٢) كاتب جلبي الرومي: مصطفى بن عبدالله بن محمد القسطنطيني الرومي، الأديب الفاضل الحنفي الشهير بـ (كاتب جلبي)، وأيضاً بـ (حاجي خليفة) (ت ١٠٦٧ هـ)، له كتاب اسمه: فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار (فذلكة تاريخ آل عثمان) (ينظر: هدية العارفين، أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني (ت ١٣٩٩ هـ) وكالة المعارف الجليّة - استانبول ٤٤٠/٢.

(٣) أحمد وفاق باشا بن يحيى ناجي الوزير الصدر الرومي (ت ١٣٠٨ هـ)، له كتاب اسمه (فذلكة التواريخ التركي) (ينظر: هدية العارفين: ١٩٢/١٢.

(٤) موجز دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مؤلفين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط١، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨ م: ٧٨٠٤/٢٥.

(٥) معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي)، أحمد شوقي بنينين، مصطفى طوبى، الخزانة الحسينية - الرياض، ط٣، ٢٠٠٥ م: ٢٦١.

(٦) ينظر: الموسوعة الجنائية الإسلامية المقارنة بالأنظمة المعمول بها في المملكة العربية السعودية، سعود بن عبد العالي العتيبي، ط٢، ١٤٢٧ هـ: ٥٩٤/١.

الفضلّة بين المفسرين والظاهر ابن عاشور: تعريف وتأسيس

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

ذكرها على سبيل التأكيد.^(١) ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةَ كَامِلَةً﴾ [البقرة: من الآية ١٩٦].

وقال عنها: "الإزالة توهم الإباحة كما في قولنا: جالس الحسن، أو ابن سيرين، وأيضاً ليعلم العدد جملة، كما علم تفصيلاً ليحاط به من جهتين، فيتأكد العلم، وفي أمثال العرب: علمان خير من علم، وكذا قوله ﴿كَامِلَةً﴾ تأكيد آخر.^(٢)

أما الزركشي (ت ٧٩٤هـ) فأوردها عند حديثه عن الإطناب إلى التفصيل بعد الإجمال، حيث بين أن مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ [التوبة: من الآية ٣٦]، وقال: عكسه الإجمال بعد التفصيل، ومثاله قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةَ كَامِلَةً﴾ [البقرة: من الآية ١٩٦]، وعلل سبب ذكر العشرة مع أن من المعلوم جمع الثلاثة والسبعة عشرة لدفع التوهم، لأن الواو تجيء في بعض المواضع للإباحة. وأما قوله ﴿كاملة﴾ فهو تحقيق للعشرة، وتأكيد لها.^(٣)

وذكر مثلاً آخر للإجمال بعد التفصيل، وهو قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وعلق على هذه الآية قائلاً: "وأعاد قوله {أربعين} وإن كان معلوماً من الثلاثين والعشر أنها أربعون لنفي اللبس؛ لأن العشر لما أتت بعد الثلاثين التي هي نص في المواعدة دخلها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة، فأعاد ذكر الأربعين نفيًا لهذا الاحتمال، وليعلم أن جميع العدد للمواعدة".^(٤)

وعن أسباب ورود الإجمال بعد التفصيل، ذكر الزركشي أن ذلك يفيد في تقوية المعنى من جهتين، وذلك أذ للنفوس، وأقوى لحفظها، وتذكرها.^(٥)

أما عبدالرحمن حبنكة الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ) فإنه ذكر أن من طرق الإطناب، التفصيل بعد الإجمال، ومثل لها قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، محمد بن عبدالرحمن بن عمر الشافعي (ت ٧٣٩هـ)

تحقيق: محمد عبدالمنعم الخفاجي، دار الجبل - بيروت، ط ٣: ٢٢١/٣.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٢١/٣-٢٢٢.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر (ت ٧٩٤هـ)

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط ١، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م: ٤٧٨/٢.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٤٧٨/٢.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٤٧٧/٢.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ { [التوبة: من الآية ٣٦]، فقوله: {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ} تفصيل بعد إجمال، وعكس ما سبق، هو (الإجمال بعد التفصيل)، واستشهد بالمثالين الذين ذكرهما كل من القزويني، والزرركشي، وكان رأيه من رأيهما.^(١)

المطلب الثاني: شرح عناصر تعريف الفذلكة:

من خلال عرض التعريفات اللغوية والاصطلاحية للفذلكة نستطيع أن نقول: إن المعنى الأول للفذلكة هو إجمال بعد تفصيل. فما الذي يعنيه الإجمال؟ وما الذي يعنيه التفصيل؟ وهل هناك فرق بين الإجمال بعد التفصيل، والتفصيل بعد الإجمال؟

وقبل أن نبحث في عناصر التعريف، نشير إلى أن القرآن الكريم قد لجأ إلى الإجمال بعد التفصيل، والتفصيل بعد الإجمال، في سوره وآياته، في مواضع كثيرة؛ وكل له مكانه الخاص، وفق وظيفته في البلاغة القرآنية، فهناك سور في القرآن الكريم يمكن عدها تفصيلاً لسورة أخرى، أو بالعكس.

أما عن الآيات التي تفصل بعد إجمال، أو تجمل بعد تفصيل، فكثيرة. وسنأتي على ذكر شيء من هذا فيما بعد. وسنقتصر في هذا المبحث على التعريف بعنصري تعريف الفذلكة (الإجمال والتفصيل).

فنقول في عناصر البحث: إنها تتكون من كلمتين، هما: الإجمال، والتفصيل.

أولاً: الإجمال

قال ابن منظور (ت ٧١١ هـ): "أَجْمَلَ الشَّيْءَ: جَمَعَهُ عَنْ تَفْرِيقِهِ؛ وَأَجْمَلَ لَهُ الْحِسَابَ كَذَلِكَ. وَالْجُمْلَةُ: جَمَاعَةٌ كُلُّ شَيْءٍ بِكَمَالِهِ مِنَ الْحِسَابِ وَغَيْرِهِ. يُقَالُ: أَجْمَلْتُ لَهُ الْحِسَابَ وَالْكَلَامَ."^(٢) وذكر الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) في معنى "أَجْمَلَ الشَّيْءَ: جَمَعَهُ عَنْ تَفْرِيقِهِ. أَجْمَلَ الْحِسَابَ وَالْكَلَامَ: رَدَهُ إِلَى الْجُمْلَةِ ثُمَّ فَصَلَهُ وَبَيَّنَّهُ."^(٣)

والجميل: ضد القبيح، والجمال ضد القبح. وَرَجُلٌ حَسَانٌ جَمَالٌ وَامْرَأَةٌ حَسَانَةٌ جَمَالَةٌ.^(٤)

(١) ينظر: البلاغة العربية، عبدالرحمن حبنكة دمشقي، عبدالرحمن بن حسن (ت ١٤٢٥ هـ)، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ/١٩٩٦ م: ٦٧/٢-٦٨.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين الأنصاري، (ت ٧١١ هـ)، دار الصادر - بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ، ١١/ ١٢٨ (جمل).

(٣) تاج العروس: ٢٣٨ / ٢٨ (جمل).

(٤) ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت ٣٢١ هـ) تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م، ١/ ٤٩١ (جمل).

الفذلكة بين المفسرين والظاهر ابن عاشور: تعريف وتأصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

أما التعريف الاصطلاحي للفظ (الإجمال)، فقد تباين أهل الأصول في تعريفه، فمنهم من قال: "هو ما أفاد شيئاً من جملة أشياء هو متعين في نفسه واللفظ لا يعينه ولا يلزم عليه".^(١) ومنهم من عرفه بأنه: "ما دل دلالة لا يتعين المراد بها إلا بمعين، سواء كان عدم التعيين بوضع اللغة، أو بعرف الشرع، أو بالاستعمال".^(٢)

أما الزركشي فقد تطرق في تعريفه للإجمال في اللغة والاصطلاح، فقال: "المجمل لغة: المبهم، من أجمل الأمر أي أبهم، وقيل: المجموع: من أجمل الحساب إذا جمع، وجعل جملة واحدة. وقيل التحصيل، من أجمل الشيء إذا حصله. واصطلاحاً: قال الآمدي: ما له دلالة على أحد معنيين لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه، وقيل: ما لم تتضح دلالاته. وقال القفال الشاشي، وابن فورك: ما لا يستقل بنفسه في المراد منه، حتى بيان تفسيره".^(٣)

وهذا سيقودنا إلى بيان الفرق بين الفذلكة والإجمال، فإذا كانت خلاصة تعريف الأصوليين للمجمل: هو ما له دلالة غير واضحة،^(٤) فإنه يختلف عن الفذلكة التي هي (إجمال بعد تفصيل)، لاعتبارين:

الأول: حيث يمكن اعتبار الفذلكة نوع من أنواع التخصيص المتصل، الذي يرتبط بما قبله من الكلام. فعادة ما يأتي الإجمال في الفذلكة بعد تفصيل سبق، أو هي إجمال ما سبق تفصيله من الكلام. والكلام الذي يرتبط بما قبله يزول إبهامه بمجموعه، يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): "فلا ريب عند أحد من العقلاء أن الكلام إنما يتم بآخره وأن دلالاته إنما تستفاد بعد تمامه وكماله؛ وأنه لا يجوز أن يكون أوله دالاً دون آخره؛ سواء سمي أوله (حقيقة أو مجازاً) ولا أن يقال: إن أوله

(١) المعتمد في أصول الفقه، أبو الحسين محمد بن علي الطيب البصري المعتزلي (ت ٤٣٦هـ)، قدم له وضبطه: خليل الميس، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ: ٢٩٣ / ١؛ وينظر: المحصول، الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي (ت ٦٠٦هـ) تحقيق: د. طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م: ١٥٣ / ٣؛ والإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، علي بن محمد، علق عليه: عبدالرزاق العفيفي، المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت، ط ٢، ١٤٠٢هـ: ١٢ / ٣.

(٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله اليميني (ت ١٢٥٠هـ) تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، تقديم: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م. ١٣ / ٢.

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر (ت ٧٩٤هـ)، دار الكتبي، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م: ٥٩ / ٥.

(٤) ينظر: أسباب الإجمال في الكتاب والسنة وأثرها في الاستنباط، د. أسامة محمد عبد العظيم حمزة، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م: ١٢.

يعارض آخره. فإن التعارض إنما يكون بين دليلين مستقلين والكلام المتصل كله دليل واحد، فالمعارضة بين أبعاضه كالمعارضة بين أبعاض الأسماء المركبة".^(١)

الثاني: هناك خلاف حقيقي بين علماء الأصول في وقوع الإجمال في القرآن والسنة، فمنعه داود الظاهري (ت ٢٧٠هـ)، وأجازه آخرون.

نقل ابن النجار (ت ٩٧٢هـ) قول داود الظاهري: "الإجمال بدون البيان لا يفيد، ومعه تطويل، ولا يقع في كلام البلغاء، فضلا عن كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله (صلى الله عليه وسلم)".^(٢) فردّ عليه قائلاً: "والجواب: أن الكلام إذا ورد مجملاً، ثم بيّنَ وفُصِّلَ أوقع عند النفس من ذكره مبيّناً ابتداءً".^(٣) وهذا الكلام يعني بالضرورة عدم وجود المجمل لوحده في القرآن بدون بيان قبله، كما في الفذلكة، أو بعده كما قال ابن النجار.

ومع كثرة القائلين بوقوع المجمل في القرآن الكريم، لكن اختلف العلماء في جواز بقاء المجمل في الكتاب والسنة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)، على مذاهب:

المذهب الأول: التفصيل بين ما يتعلق به حكم تكليفي فلا يجوز، وغيره فيجوز. فإن كان المجمل يتعلق به حكم تكليفي لم يجز بقاؤه مجملاً؛ لأن تأخير بيانه تأخيراً للبيان عن وقت الحاجة، وهذا لا يجوز. أما إذا لم يتعلق به حكم تكليفي: فإنه يجوز بقاؤه مجملاً؛ لعدم وجود ضرورة تدعو إلى بيانه. المذهب الثاني: يجوز بقاء المجمل بدون بيان مطلقاً. وهو مذهب بعض العلماء. ودليلهم: أنه لا يترتب على فرض بقاء المجمل محال عقلاً، فكان جائزاً.

المذهب الثالث: لا يجوز بقاء المجمل بدون بيان مطلقاً. وهو مذهب كثير من العلماء.^(٤)

وذهب الدكتور عبدالكريم النملة إلى تصحيح رأي المذهب الأول، والرد على المذهبين الثاني والثالث بقوله: لا نسلم ذلك، فإن بقاء المجمل بدون بيان يترتب عليه تأخير البيان. عن وقت الحاجة، وهذا غير جائز اتفاقاً. وأما ما لا تدعو الحاجة إليه، فلا يلحق الناس حرج فيما لو لم يعلموا بيانه.^(٥)

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني (ت ٧٢٨هـ) تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة النبوية - المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م. ٣١ / ١١٧ :

(٢) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد الفتوحى (ت ٩٧٢هـ) تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، ط ٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م: ٣ / ٤١٥.

(٣) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير: ٣ / ٤١٥.

(٤) ينظر: المهذب في علم أصول الفقه المقارن، عبد الكريم بن علي بن محمد النملة، مكتبة الرشد - الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م: ٣ / ١٢٤٠.

(٥) ينظر: المهذب في علم أصول الفقه المقارن: ٣ / ١٢٤٠-١٢٤١.

الفذلكة بين المفسرين والظاهر ابن عاشور: تعريف وتأصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

ويقول الرازي (ت ٦٠٦هـ) قولاً فصلاً في هذه المسألة: " كل مجمل وُجِدَ في كتاب الله تعالى قد وُجِدَ في العقل، أو في الكتاب، أو في السنة بيانه، وحينئذ يخرج عن كونه غير مفيد، إنما البيان فيما لا يمكن معرفة مراد الله منه".^(١)

ومثال المجمل في القرآن الكريم الذي ورد تفصيله في السنة النبوية الشريفة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ [التوبة: من الآية ٣٦]، وقد بيّن إجمال هذه الآية النبي (صلى الله عليه وسلم) في خطبة حجة الوداع بقوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾، [ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان].^{(٢) (٣)}

ثانياً: التفصيل

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): " الفاء والصاد واللام كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على تمييز الشيء. من الشيء وإبانته عنه. يقال: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلاً... وَالْمِفْصَلُ: اللِّسَانُ؛ لِأَنَّ بِهِ تَفْصِيلَ الْأُمُورِ وَتُمَيِّزٌ".^(٤) وعرض قضيته بالتفصيل/ على وجه التفصيل/ جملةً وتفصيلاً: بذكر جزئيات الأمور ودقائقها، بالإسهاب والبسط والشرح والتحليل.^(٥)

ويقول الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ) في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: من الآية ١٢]: " وكل شيء بيناه بياناً شافياً لكم أيها الناس"^(٦).

ونجد أن الإمام الطبري جعل التفسير والتفصيل بمعنى واحد، فقال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٣٣]، وعنى بقوله ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وأحسن مما جاءوا به من المثل بياناً وتفصيلاً.^(٧)

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ: ٢/ ٢٥٦.

(٢) الحديث، أخرجه في الصحيحين: البخاري ٤/ ١٣٠ الحديث رقم ٣١٩٧ ومسلم ٥/ ١٠٧ الحديث رقم ٤٤٧٧.

(٣) ينظر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، دار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م: ١٠/ ١٨٣.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت ٣٩٥هـ) تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م: ٤/ ٥٠٥ (فصل).

(٥) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: ٣٧٩١ (فصل).

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الأملي (ت ٣١٠هـ) تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار الهجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م: ١٧/ ٣٩٥.

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٠١٩/ ٢٦٧.

وكذلك قال أكثر أهل الأصول عندما فسروا المفصل بالمفسر، يقول الإمام السرخسي (ت ٤٨٣هـ): "وأما بيان التفسير فهو بيان المجمل والمشارك فإن العمل بظاهره غير ممكن، وإنما يوقف على المراد للعمل به بالبيان، فيكون البيان تفسيراً له"^(١). والتفصيل هو بالفعل بيان للمجمل، غير أنه استعمل مصطلح (بيان التفسير) بدلاً من مصطلح (التفصيل)^(٢).

ومعنى التفصيل عند ابن عاشور، هو: التوضيح والبيان. وهو مشتق من الفصل بمعنى التفريق بين الشيء وغيره بما يميزه، فصار كناية مشهورة عن البيان لما فيه من فصل المعاني^(٣). وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: الآية ٣٧]: " ومعنى كون القرآن تفصيلاً لها أنه مبين لما جاء مجملاً في الكتب السالفة، وناسخ لما لا مصلحة للناس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضل بها أهل الكتاب، فكل ذلك داخل في معنى التفصيل"^(٤).

ولسائل أن يسأل؛ إذا كانت الجملة التفصيلية تجيء بمعنى التوضيح والبيان والتفسير، فما وجه الحاجة إلى الفذكرة بعدها؟

هذا السؤال يجيب عنه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، بكلام دقيق سنبثه في المبحث الثالث عند الكلام عن تاريخ الفذكرة ومعناها، وأهميتها وأغراضها عند الطاهر ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير.

المطلب الثالث: الفذكرة عند المفسرين :

لم ينفرد ابن عاشور بذكر مصطلح الفذكرة لوحده، وإن كان بحثنا هو الفذكرة عنده، وذلك لوجود أسباب دفعتنا لاختيار الفذكرة عنده، سنبينها لاحقاً، وعند البحث عن لفظ، أو مصطلح الفذكرة في كتب التفسير لم نجد له ذكراً عند المفسرين القدامى، ابتداءً بالإمام الطبري (ت ٣١٠هـ) والإمام البغوي (ت ٥١٠هـ) وكذلك الإمام القرطبي (ت ٦٧١هـ)، والحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، وغيرهم، ولم يذكر الفذكرة من القدماء غير أبي القاسم الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)؛ ولكن لم يُعرّفها ولم يتطرق لأي شيء من خصائصها ومميزاتها، بل كانت عنده مقتصرة تقريباً على فذكرة العدد؛ إذ يقول:

(١) أصول السرخسي، السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل (ت ٤٨٣هـ) تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر أباد - الهند. ٢٨/ ٢٠.

(٢) ينظر: الإجمال والتفصيل في التعبير القرآني (دراسة في الدلالة القرآنية)، سيروان عبد الزهرة هاشم الجنابي (أطروحة دكتوراه)، إشراف: عبدالكاظم محسن الياسري، كلية الآداب/ جامعة الكوفة-العراق، ١٢٠: ٢٠٠٦م.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٣١٥ / ١١.

(٤) التحرير والتنوير: ١٦٩ / ١١.

الفذلكة بين المفسرين والظاهر ابن عاشور: تعريف وتأصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

"فائدة الفذلكة في كل حساب، أن يُعلم العدد جملة، كما عُلم تفصيلاً، ليُحاط به، ومن جهتين، فيتأكد العلم، وفي أمثال العرب: علمان خير من علم".^(١)

والملاحظ من كلام الزمخشري أن مفهوم الفذلكة عنده: هي الإجمال بعد التفصيل، وأن الغاية منها هي التوكيد، وقد وردت الفذلكة في تفسيره في ثلاثة مواضع فقط.^(٢)

ويعد البيضاوي ثاني من استعمل مصطلح الفذلكة في تفسيره، وهو أيضاً لم يعرفها، ولم يذكر من خصائصها شيئاً؛ إلا أنه عنى بها أيضاً إجمال ما فُصِّل مسبقاً، وذلك واضح عند كلامه في تفسير قوله تعالى: {فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: من الآية ١٩٦]، حيث أفاد بأن فائدة الفذلكة أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً.^(٣)

إلا أن البيضاوي في تفسيره لمصطلح الفذلكة، قد تميز عن الزمخشري بأمرين:

الأول: أن عدد جمل الفذلكة عنده أكثر من الزمخشري، وعددها ثلاث عشرة جملة.^(٤)

الثاني: أنه أطلق على الفذلكة في كل موضع ذكرها نوعاً، وبين الغرض منها. فمما ذكره عن نوعها، قوله: فذلكة التمثيل ونتيجته^(٥)، أو فذلكة القضية^(٦). وأحياناً يكتفي بذكر الفذلكة بأنها إجمال لما قبلها.^(٧)

أما شرف الدين الطيبي (ت ٧٤٣هـ) فقال: "الفذلكة في الحساب الإجمال بعد التفصيل، وذلك بأن يذكر تفاصيله ثم يجمل فيكتب في مؤخره فذلك كذا وكذا، منه قول حاتم:^(٨)

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ: ٢٤١/١.

(٢) ينظر الكشاف: ٢٤١/١؛ ١٨٨/٤؛ ٢٨٣/٤.

(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت ٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ: ١١٣٠.

(٤) ينظر: أنوار التنزيل: ٥١/١؛ ٥٨/١؛ ١٠٤/٥.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل: ٥١/١.

(٦) ينظر: أنوار التنزيل: ١٠٤/١.

(٧) ينظر: أنوار التنزيل: ٢١٣/٣.

(٨) ينظر: أشعار الشعراء الست الجاهليين، الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الأندلسي (ت ٤٧٦هـ): ١١٥؛ ومختارات شعراء العرب، ابن الشجري، أبو السعادات ضياء الدين هبة الله بن علي بن حمزة (ت ٥٤٢هـ)، ضبطها وشرحها: محمود حسن زناتي، مطبعة الاعتماد، مصر، ط ١، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م: ١٤/١.

فَذَلِكَ إِنْ يَهْلِكُ فَحُسْنَى ثَنَاؤُهُ وَإِنْ عَاشَ لَمْ يَقْعُدْ ضَعِيفاً مُذَمَّماً

وقال في موضع آخر: "الفلذكة في الحساب: هي أن تذكر أولاً أشياء مفصلاً، ثم تجمع تلك التفاصيل، وتكتب في معرض الحساب: فذلك كذا وكذا".^(١)

ويعدّ الطيبي من الذين أكثروا من ذكر الفلذكة، إذ بلغت المواضع التي أوردها في كتابه قرابة سبعة وعشرين موضعاً.^(٢)

وهناك تشابه في بعض الأمور بين الطيبي وابن عاشور، إذ إنه يذكر في بعض الأحيان أن الجملة فلذكة وتلخيص.^(٣) أو يذكر أنها فلذكة وخاتمة للسورة.^(٤)

ومما يُحسب للطبيبي أنه أشار إلى نوع آخر من أنواع الفلذكة، ألا وهو فلذكة التقرير ونتيجته، حيث ذكر أن قوله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: من الآية ٥٤]، فلذكة التقرير ونتيجته.^(٥) وعنده قد تأتي الفلذكة مستأنفة مفصولة عن الجمل السابقة لها، لأنها إجمال للأوصاف السابقة والخاتمة لها.^(٦) وإذا جئنا إلى علاء الدين الخازن (ت ٧٤١هـ) نجده قد ذكر الفلذكة في تفسيره مرة واحدة فقط، وذلك عند قوله تعالى: {قَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: ١٩٦]، وعنى بها فلذكة الحساب، وعلّل ذلك بأن: "القرآن أنزل بلغة العرب، والعرب تُكرّر الشيء تريد به التوكيد، وقيل فائدة ذلك الفلذكة في علم الحساب، وهو أن يعلم العدد مفصلاً، ثم يعلمه جملة ليحتاط به من جهتين".^(٧) وممن تابع الخازن في ذكر نوع الفلذكة وفائدتها أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)^(٨)، والسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)،^(٩)

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبدالله (ت ٧٤٣هـ) تحقيق: إياد محمد الغوح، ط ١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م: ٥٧٢/١٣.

(٢) ينظر: فتوح الغيب: ٣٨٤/٢، ٣٧٦/١٦.

(٣) ينظر: فتوح الغيب: ٣٨٤/٢.

(٤) ينظر: فتوح الغيب: ٥٧٣/٣؛ ٤٥٩/١٥.

(٥) ينظر: فتوح الغيب: ٤٠٨/٦.

(٦) ينظر: فتوح الغيب: ٣٧٦/١٦.

(٧) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشيعي (ت ٧٤١هـ) تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ: ١٢٧/١.

(٨) ينظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (ت ٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ: ٢٦٨/٢.

(٩) ينظر: الدر المصون في علم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبدالدائم (ت ٧٥٦هـ) تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم - دمشق: ٣٢٠/٢.

الفلذكة بين المفسرين والطاهر ابن عاشور: تعريف وتأسيس

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

والنيسابوري (ت ٨٥٠هـ)،^(١) وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٢)، وشمس الدين الشربيني (ت ٩٧٧هـ)^(٣)؛ حيث اقتصروا على ذكر فلذكة الحساب فحسب، وأن فائدتها للتأكيد، وإزالة التوهم.

وأما أبو بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، فإنه قد توسع في مفهوم الفلذكة، مضيئاً إلى فلذكة الحساب، فلذكة القصة^(٤)، أو السورة^(٥)، ولكنه لم يُعرج إلى تعريف الفلذكة، وبلغ عدد جمل الفلذكة عنده عشرين جملة.^(٦)

ومن الذين ذكروا الفلذكة الإيجي (ت ٩٠٥هـ) حيث ورد مصطلح الفلذكة عنده في تفسيره في ثلاثة مواضع، سمى الفلذكة بها في الأولى، بأنها فلذكة التمثيل^(٧)، والثانية: فلذكة المقصود^(٨)، والأخيرة بأنها فلذكة للأوامر السابقة.^(٩)

وأما أبو السعود العمادي (ت ٩٨٢هـ)، فهو من الذين أكثروا من ذكر مصطلح الفلذكة في تفسيره، ولكنه لم يعرّف الفلذكة، ولم يتطرق إلى خصائصها، ولكنه ذكر أنواعها، كفلذكة القضية^(١٠)،

(١) ينظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان، النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي (ت ٨٥٠هـ) تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ: ٥٤٦/١.

(٢) ينظر: نواهد الأبحار وشوارد الأفكار، السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، ت، ن ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٥م: ٣٩١/٢.

(٣) ينظر: السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض كلام ربنا الحكيم الخبير، الخطيب الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد الشافعي (ت ٩٧٧هـ): ٥٠٦/٣.

(٤) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط (ت ٨٨٥هـ) دار الكتاب الإسلامي، القاهرة: ١٤٥/٢؛ ٣٧٨/٧.

(٥) ينظر: نظم الدرر: ٧٤٦/١٢.

(٦) ينظر: نظم الدرر: ١٤/٢؛ ٧٣/٢١.

(٧) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن، الإيجي، محمد بن عبدالرحمن بن محمد الشافعي (ت ٩٠٥هـ) دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م: ٣٠/١.

(٨) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: ٩٢/١.

(٩) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: ٣٢٣/٤.

(١٠) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت: ١٥٤/١.

والتمثيل^(١)، وفذلكة السورة^(٢). وأحياناً يذكر دلالتها، كأن تكون للتقرير^(٣)، أو للتأكيد^(٤). وقد ورد ذكر الفذلكة في تفسيره في ستة عشر موضعاً^(٥).

ويأتي بعد أبي السعود شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، ليذكر في تفسيره الفذلكة، معرّفاً لها بأنها: "عبارة عن إجمال الأمور، مأخوذة من قول الحاسب بعد ما يملئ مفردات ما يحسبه، فجملة ذلك كذا، فركب هذا اللفظ من بعض حروفه، ويسمى هذا عند الأدباء، نحتاً، كقوله: حوقل، وبسمل، وهو مقصور على السماع، وهذه اللفظة لم تُسمع من فصحاء العرب الذين يحتج بكلامهم، وإنما أحدثها المولدون"^(٦).

ومن الجدير بالذكر أن الخفاجي قد أشار إلى معنى الفذلكة بأنها إجمال ومحصل لما قبلها من الكلام^(٧)، وكذلك فرّق بين مفهوم الفذلكة والنتيجة^(٨)، وسنتناولها بالتفصيل في الفصل الثاني. وعدد جمل الفذلكة عنده ست عشرة جملة^(٩).

ومن الذين ذكروها أيضاً إسماعيل حقي أبو الفداء (ت ١١٢٧هـ)، إذ ذكرها في تفسيره في خمسة مواضع فقط^(١٠)، ولم يبيّن شيئاً عنها إلا عند قوله تعالى: {فَصِيَامٌ ثَلَاثَةٌ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: ١٩٦]، حيث قال بأنها فذلكة الحساب، وعرّج إلى ذكر أهميتها بأنها تأتي لدفع التوهم من أن الواو قد تكون بمعنى أو؛ وكذلك ليُعلم العدد جملة، كما علّم تفصيلاً، لأن في مبدأ العرب (علمان خير من علم)، فكان الرجل إذا خاطب صاحبه بأعداد متفرقة، جمعها له ليتأكد عنده. وذكر أن من فوائدها أيضاً أن المراد بالسبعة هو العدد ذاته، ولا يُراد منه الكثرة^(١١).

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٤٠/٥.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦٦/٨.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٠٥/١.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٠٧/١.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٠٥/١، ١٩٦/٨.

(٦) عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي، أحمد بن محمد بن عمر المصري الحنفي (ت ١٠٦٩هـ) دار صادر - بيروت: ٣٨٦/١.

(٧) ينظر: عناية القاضي: ٢٨٥/٢.

(٨) ينظر: عناية القاضي: ٣٨٦/١.

(٩) ينظر: عناية القاضي: ٤٨/٢؛ ١٣/٨.

(١٠) ينظر: روح البيان، أبو الفداء، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي (ت ١١٢٧هـ) دار الفكر - بيروت: ٦٨/١، ٣٣٠/٩.

(١١) ينظر: روح البيان: ٣١٢/١.

الفذلكة بين المفسرين والطاهر ابن عاشور: تعريف وتأسيس

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

وكذلك ذكرها أبو العباس الصوفي (ت ١٢٢٤هـ) في خمسة مواضع فقط^(١)، ولم يذكر أيّ تفصيل أو تعريف لها، وكان في أغلب الأحيان ينقل عن البيضاوي.

وأما الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، فقد ذكر الفذلكة في تفسيره في موضعين فقط^(٢)، وقال إن من عادة العرب أن تأتي بها للتوكيد، كما تقول: (كتبت بيدي)، واستشهد بقول الأعشى: (٣)

ثَلَاثٌ بِالْغَدَاةِ وَذَاكَ حَسْبِي وَسِتٌّ حِينَ يُدْرِكُنِي الْعِشَاءُ

فَذَلِكَ تِسْعَةٌ فِي الْيَوْمِ رَبِّي وَشُرْبُ الْمَرْءِ فَوْقَ الرَّيِّ دَاءٌ

وممن ذكر الفذلكة شهاب الدين الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) في تفسيره، وهو من الذين أكثروا من ذكرها، ويأتي في المرتبة الثانية بعد ابن عاشور، إذ بلغ عددها خمسة وثلاثين موضعاً^(٤)، وهو من الذين أوردوا تعريفاً للفذلكة، بأنها إجمال لما تم تفصيله^(٥)، وكان في بعض الأحيان يبين الغاية أو الهدف من جملة الفذلكة، كما في قوله تعالى: {تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا} [الأعراف: من الآية ١٠١]، حيث قال عنها: "جملة مستأنفة جارية مجرى الفذلكة، مما قبلها منبهة عن غاية غواية الأمم المذكورة".^(٦) كما أنه تطرق إلى بعض أنواع الفذلكة، كفذلكة النتيجة، وفذلكة التمثيل، وفذلكة القصة، ومثالها قوله تعالى: {لِيَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: الآية ١٢٢]، قال عنها بأنها فذلكة القصة، والمقصود منها.^(٧) وممن ذكرها في تفسيره أيضاً، محمد صديق خان القنوجي (ت ١٣٠٧هـ)، واقتصر ذكره لها في خمسة مواضع فقط،^(٨) واكتفى بذكر لفظ الفذلكة، ولم يتطرق إلى تعريفها، ولا خصائصها، غير أنه تطرق إلى بعض أنواعها، كفذلكة التمثيل، وفذلكة القصة.^(٩)

(١) ينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي الصوفي (ت ١٢٢٤هـ)

تحقيق: أحمد عبدالله القرشي رسلان، الناشر: د. حسن عباس زكي - القاهرة، ط ١٤١٩هـ: ٤٧٨/٢، ٢٦٨/٤.

(٢) ينظر: فتح القدير، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله اليمني (ت ١٢٥٠هـ) دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ: ١٥٩/١، ٢٢٧/١.

(٣) ينظر: البحر المحيط (٢/٢٦٨)، والدر المصون: ٢/٣٢٠.

(٤) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني، الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني (ت ١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت: ٤٧٤/١، ٣٢١/١٣.

(٥) ينظر: روح المعاني ١/١٦٣، ١٢/٣٥٤.

(٦) روح المعاني. ١٥/٥ :

(٧) ينظر: روح المعاني: ١/٣٧١.

(٨) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان (ت ١٣٠٧هـ) عني بطبعه خادم العلم عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة المصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، ت، ن ١٤١٢هـ/١٩٩٢م: ٢٦٩/١، ٣٧٤/١٣.

(٩) ينظر: فتح البيان. ١٠١/٧ :

وتابع القنوجي كل من القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، ومحمد رشيد رضا (ت ١٣٤٥هـ)، في ذكرهما للفظ، وبلغ عدد مواضع الفذلكة عند القاسمي سبعة مواضع،^(١) وعند رشيد رضا ثمانية مواضع،^(٢) والأخير قد جمع بين الفذلكة والتذليل في موضع واحد، وهو عند قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ٧٣]، حيث قال: "ففي هذا التذليل تقرير لمضمون الآية، وفذلكة للسباق الوارد في إنكار دعاء غير الله تعالى".^(٣)

وانتهج المراغي (ت ١٣٧١هـ) منهج من سبقوه من المفسرين، وكان عدد جمل الفذلكة عنده عشرة مواضع^(٤)، وهو من الذين ذكروا أنواعها، فذكر منها: إجمالاً لما تقدم تفصيله^(٥)، وفذلكة الخلاصة^(٦)، أو الخاتمة^(٧)، أو النتيجة^(٨).

المطلب الرابع: تعريف الفذلكة وأهميتها وفوائدها وخصائصها عند ابن عاشور:

أولاً: تعريف الفذلكة عند ابن عاشور:

لم يختلف تعريف الفذلكة عند ابن عاشور عن تعريف غيره من العلماء، إلا أنه لم يتطرق إلى تعريفها، ولا أنواعها، ولا أهمية ورودها في القرآن عند ذكره لها أول مرة في تفسيره، فقد ذكرها أول مرة عند قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٦]^(٩)، لكنه فصل القول فيها عند الكلام على قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٦]. إذ نلاحظ:

(١) ينظر: محاسن التأويل، القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد (ت ١٣٣٢هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ: ٣٨٩/١، ٤٢٤/٨.

(٢) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م: ٣٧١/١، ١٩٠/١٢.

(٣) تفسير المنار: ٤٤٤ / ٧.

(٤) ينظر: تفسير المراغي، المراغي، أحمد بن مصطفى (ت ١٣٧١هـ) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م: ١٣ / ٨٦؛ ٢٨ / ١٢٨.

(٥) ينظر: تفسير المراغي: ٥٥ / ٢٠.

(٦) ينظر: تفسير المراغي: ٣٠ / ١٤.

(٧) ينظر: تفسير المراغي: ١٢٨ / ٢٨.

(٨) ينظر: تفسير المراغي: ١١١ / ٢٤.

(٩) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩٧ / ١.

الفذلكة بين المفسرين والطاهر ابن عاشور: تعريف وتأصيل
إلهام عبد الكريم محمد
أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

١. أنه سمى الفذلكة هنا بأنها فذلكة الحساب.
 ٢. عرّف فذلكة الحساب بقوله: بأنها مأخوذة من قول الحاسب إذا ذكر عددين فصاعداً قال عند إرادة جمع الأعداد: فذلك - أي المعدود - كذا.
 ٣. عدّ الفذلكة من صيغ النحت كالبسمة من بسم الله، والحوقلة من قول القائل: لا حول ولا قوة إلا بالله، فحروف الفذلكة متجمعة من حروف: فذلك كذا وكذا.
 ٤. عدّ الفذلكة كلمة مولدة لم تسمع من كلام العرب، وغلب إطلاقها على خلاصة جمع الأعداد، وإن كان اللفظ المحكي جرى بغير كلمة (ذلك).^(١)
 ٥. بلغ عدد المواضع التي ذكر فيها الفذلكة أكثر من مئة موضع، كلها جاءت بصيغة المفرد (فذلكة) إلا موضعاً واحداً ذكر فيها الفذلكة بصيغة المثني، عند قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} [فصلت: الآية ٥٤]، حيث ذكرها بالصيغة الآتية: "تذليلان للسورة وفذلكتان افتتحا بحرف التنبيه اهتماما بما تضمناه".^(٢)
- ثانياً: خصائص الفذلكة وأهميتها وفوائدها عند الشيخ ابن عاشور:
- تعد جملة الفذلكة نوعاً من أنواع الإطناب التابعة للبلاغة في الكلام العربي، فبعد البحث عن مصطلح الفذلكة عند ابن عاشور بشكل دقيق، وجدنا أنّ لها خصائص ومميزات، وتحمل وظائف وفوائد عديدة في سياق الكلام، فضلاً عن أنها تعطي للكلام جمالاً ورونقاً، وأن وجودها ليس اعتباطياً - كما يظن البعض.
- وستنكلم أولاً في خصائص الفذلكة عند ابن عاشور، ثم نُنْبِغُهُ بالكلام عن أهمية وفوائد الفذلكة عنده.
- ١- خصائص الفذلكة عند ابن عاشور:
- من خلال استقراء المواضع التي ذكر ابن عاشور فيها الفذلكة في تفسيره، وجدنا أنه قد ذكر لها خصائص ومميزات تميزها عن غيرها من فنون البلاغة والبديع في الكلام العربي؛ وسنذكر هذه الخصائص كما وردت عنده في تفسيره:
١. إجمال لما سبقها من تفصيل: إنها بمنزلة الإجمال أو الخلاصة لما سبقها من تفصيل^(٣)، وتلخيص لأهم المقصود من الكلام السابق لها، وبيان الحكمة منها^(٤)، لذلك فإن جملة الفذلكة عادة ما تأتي في آخر الكلام، للإفادة بانتهاء الكلام.^(٥)

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢ / ٢٢٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٥ / ٢١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١ / ٢٩٧، ٣ / ١٣١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦ / ١٥.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤ / ٢٢٣، ٢٧ / ٢٧٦.

٢. ومن شأن الفذلكة الاستئناف وعدم العطف غالبًا: والاستئناف هو الابتداء بجملة بعد قطع، ويكون مصحوبًا عادةً بواو تسمى (واو الاستئناف). أي أن شأنها دائمًا تقع في بداية جملة استئنافية، ولكنها مرتبطة بما قبلها من الكلام^(١). ومن أسباب عدم عطف جملة الفذلكة، هو وجود ما بينها وبين ما قبلها كمال الاتصال^(٢)، لذلك تفصل، ولا تعطف. وأمثلتها كثيرة عند ابن عاشور، منها قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: من الآية ١٧]، حيث قال: إن هذه الجملة: "واقعة من الجمل الماضية موقع البيان والتقرير والفذلكة، فكان بينها وبين ما قبلها كمال الاتصال، فلذلك فُصلت، ولم تعطف"^(٣).

وقال في موضع آخر عند قوله تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة: الآية ٦٧]، حيث إن جملة {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} فذلكة للتي قبلها، فلذلك فصلت؛ لأنها كالبيان الجامع لها.^(٤)

ولكن في بعض الأحيان قد تأتي جملة الفذلكة معطوفة على التي قبلها على غير الأصل، لأن السياق والمعنى يتطلب ذلك، وهذا ما أشار إليه الألوسي بقوله: "العطف إنما يقتضي مغايرة الأحوال لا مغايرة القصص وأصحابها"^(٥).

ومثالها عند ابن عاشور هو قوله تعالى: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد: من الآية ١٤]، إذ إن هذه الجملة فذلكة ومعطوفة على قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ} [الرعد: من الآية ١٤]، وبينت جملة التمثيل حال عجز المدعو عن الإجابة كناية وتلميحاء، وكذلك تمثل كناية عن خيبة الداعي. وأما جملة الفذلكة، فإنها بينت حال خيبة الداعي بالتصريح بعد أن بينه بالكناية.^(٦) وبرَّر ابن عاشور العطف في جملة الفذلكة قائلاً: "بإختلاف الغرض والأسلوب حسن العطف، وبالمثال حصل توكيد الجملة الأولى، وتقريرها، وكانت الثانية كالفذلكة لتفصيل الجملة الأولى"^(٧).

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩٧/١، ١٧٠/٩.

(٢) يقصد بـ(كمال الاتصال) أن يكون بين الجملتين اتحاد واتصال تام، وذلك أن تكون الجملة الثانية تأكيدًا للأولى، والمقتضى للتأكيد هو دفع توهم التجوز، والغلط. ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، الدار العربية للموسوعات، ت، ن، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م: ١١٩/٣.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠٢/١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٣٥/١٠، ٢٥٩/٢١.

(٥) روح المعاني: ١٥٥/١.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠٩/١٣ - ١١٠.

(٧) التحرير والتنوير: ١١٠/١٣.

الفذلكة بين المفسرين والظاهر ابن عاشور: تعريف وتاصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

ومثالها أيضاً قوله تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود: الآية ١٢٠]، إذ إن هذه الآية فذلكة لما سبق فيها من القصص والمواعظ، وتعد تهيئة لاختتام السورة، وهي معطوفة على التي قبلها عطف الأخبار على الأخبار، والقصة على القصة.^(١)

٣. ومن خصائص الفذلكة أنها قد تكون مقدمة لما بعدها: إذ بين ابن عاشور هذه الخصيصة عند قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: الآية ٢٥٣]، قائلاً: "إن موقع هذه الآية موقع الفذلكة لما قبلها، والمقدمة لما بعدها. فأما الأول فإن الله تعالى لما أنبأ باختبار الرسل إبراهيم وموسى وعيسى وما عرض لهم مع أقوامهم وختم ذلك بقوله: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [البقرة: الآية ٢٥٢] جمع ذلك كله في قوله: {تِلْكَ الرُّسُلُ} لفتاً إلى العبر التي في خلال ذلك كله".^(٢)

هذا فيما يخص جملة الفذلكة، وأما كونها مقدمة لما بعدها، فقد ذكر ابن عاشور: "وأما الثاني فلأنه لما أفيض القول في القتال وفي الحث على الجهاد والاعتبار بقتال الأمم الماضية، عقب ذلك بأنه لو شاء الله ما اختلف الناس في أمر الدين من بعد ما جاءتهم البيئات، ولكنهم أساؤوا الفهم فجددوا البيئات فأفضى بهم سوء فهمهم إلى اشتطاط الخلاف بينهم حتى أفضى إلى الاقتتال".^(٣)

٤. الأصل في الفذلكة أن تبدأ باسم الإشارة (ذلك)، ولكنها قد تبدأ بغير ذلك بما يناسب تناسق المعاني، وتماشياً مع السياق، ومثاله قول الله تعالى: {فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا} [النساء: الآية ١٦٠]، إذ بين ابن عاشور أن هذه الآية هي فذلكة لما تقدم من نقضهم للميثاق، وكفرهم بأنبياء الله وقتلهم، وما إلى ذلك؛ وكأنه قال: فبذلك كله حرّمنا عليهم، ولكنه عدل إلى لفظ الظلم: لأنه أحسن تفنناً، وأكثر فائدة من الإتيان باسم الإشارة.^(٤)

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢/١٩١، ٢٢/٢٢٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/٣.

(٣) التحرير والتنوير (٥/٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٦/٢٦.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبِعُوا سَبِيلَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الأنفال: الآية ٢٠]، فبعد أن بيّن أن هذه الآية فدلّة، كذلك بيّن سبب افتتاحها بالنداء، فقال: "وافتح الخطاب بالنداء للاهتمام بما سيُلقى إلى المخاطبين قصدًا لإحضار الذهن لوعي ما سيُقال لهم، فنزل الحاضر منزلة البعيد، فطلب حضوره بحرف النداء الموضوع لطلب الإقبال"^(١). وأضاف أن: التعريف بالموصولة في هذه الآية غايتها هو التنبيه على أن الموصوفين بهذه الصلة من شأنهم أن يتقبلوا ما سيؤمرون به.^(٢)

٥. ومن خصائصها أنها قد تأتي إجمالاً لسورة كاملة، أو لمجموعة من آياتها، أو لآية أو لجملة قبلها. - فمن مثال الأول: قوله تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: الآية ٨٦]، قال ابن عاشور عنها: "لما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بإبلاغ المواعظ والعبر التي تضمنتها هذه السورة، أمره عند انتهائها أن يقرع أسماعهم بهذا الكلام الذي هو كالفلّة للسورة تنهية لها".^(٣)

وكذلك مثالها قوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِهِ لِلسَّانِكِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [الدخان: الآية ٥٨]، حيث قال ابن عاشور: "الفاء للتفريع إشارة إلى أن ما بعدها متفرع عما قبلها، حيث كان المذكور بعد الفاء فدلّة للسورة، أي إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى إحضاراً لتلك الأغراض وضبطاً لترتب عليها".^(٤)

- ومثال الثاني: قوله تعالى: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: من الآية ٨٢]، إذ بيّن ابن عاشور أن هذه الجملة: "فدلّة للجمل التي قبلها ابتداءً من قوله: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} (٧٩) وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَحَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرْدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ رِزْقًا وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: الآيات ٧٩ - ٨٢]، فالإشارة بـ {ذلك} إلى المذكور في الكلام السابق، وهو تلخيص للمقصود كحوصلة المدرس في آخر درسه".^(٥)

(١) التحرير والتنوير: ٣٠٣/٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠٣/٩.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠٨/٢٣.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٢٠/٢٥.

(٥) التحرير والتنوير: ١٥/١٦.

الفذلكة بين المفسرين والطاهر ابن عاشور: تعريف وتأسيس

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

- ومثال الثالث: قوله تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: من الآية ٧٣]، قال ابن عاشور إن هاتين الصفتين فذلكة لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الأنعام: من الآية ٧٣]؛ ذلك لأن: "صفة الحكيم تجمع إتقان الصنع، فتدل على عظم القدرة مع تعلق العلم بالمصنوعات، وصفة الخبير تجمع العلم بالمعلومات ظاهرها وخفيها".^(١)

٦. ومن خصائص الفذلكة أنها قد تأتي جواباً لسؤالٍ ما يتضمنه سياق الكلام، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [الحج: الآية ١٧]، قال ابن عاشور: إن هذه الآية: "فذلكة لما تقدم؛ لأنه لما اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال المترددين في قبول الإسلام كان ذلك مثاراً لأن يتساءل عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان، وأن يسأل عن الدين الحق لأن كل أمة تدعي أنها على الحق وغيرها على الباطل وتجادل في ذلك. فبيّنت هذه الآية أن الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكون يوم القيامة، إذ لم تقدم الحجج في الدنيا".^(٢)

٧. الفذلكة كثيراً ما تأتي للفصل بين غرضين، لأن وجودها في سياق الكلام تفيد الانتهاء من الغرض الذي سبق الكلام من أجله، والانتقال إلى غرض آخر، ولعل ما يُبرر هذه الخصيصة، هو قولنا فيما سبق أن الفذلكة جزء من الاستئناف، والاستئناف: "يقضي الانتقال من غرض إلى آخر، وهو المُسمّى بالاعتضاب، وإنما يحسن في البلاغة إذا أشبع الغرض الأول، وأفيض فيه، حتى أوعب أو حتى خيفت سامة السامع"^(٣). وأمثلتها كثيرة عند ابن عاشور، منها قوله تعالى: {أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: الآية ٢٨٥]، فبعد أن ذكر أن هذه الآية تأكيد وفذلكة لجميع ذلك المذكور من قبل، قال: "إن هذا انتقال من المواعظ، والإرشاد، والتشريع، وما تخلل ذلك: مما هو عون على تلك المقاصد، إلى الثناء على رسوله والمؤمنين في إيمانهم بجميع ذلك إيماناً خالصاً يتفرع عليه العمل؛ لأن الإيمان بالرسول والكتاب، يقتضي الامتثال لما جاء به من عمل. فالجملة استئناف ابتدائي وضعت في هذا الموقع لمناسبة ما تقدم،

(١) التحرير والتنوير: ٣٠٩/٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٢٢/١٧.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢٩/١.

وهو انتقال مؤذن بانتهاء السورة؛ لأنه لما انتقل من أغراض متناسبة إلى غرض آخر: هو كالحاصل والفظلكة، فقد أشعر بأنه استوفى تلك الأغراض^(١). ومن مثاله أيضاً قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: الآية ١٦١]، فهذه الآية استئناف ابتدائي انتقل فيه القرآن بأسلوب المعجز من مجادلة المشركين، وما تخلل هذه المجادلة من حججهم وإعراضهم عن الإيمان به، فغلقاً لباب المجادلة مع المشركين، جاءت الآية فذلك لما أمر به الرسول في هذه الشأن، وكذلك تضمن أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثابت على الذي جاءهم به، وأن إعراضهم لا يزلزله عن الحق، وأنه تقلد لنفسه ما كان يجادلهم فيه، ليقلدوه.^(٢)

وينبغي الإشارة إلى أن جملة الفذلكة عندما تأتي للفصل بين غرضين، فإنه غالباً ما تؤذن بانتهاء السورة، أو انتهاء هذا الموضوع الذي خُتم بالفذلكة؛ كما في هذه الآية.

٨. ومن خصائص الفذلكة أيضاً أنها قد تعود إلى فذلكة أمر سابق قد انتقل عنه، إلى موضوع آخر، فتعود إلى فذلكة الموضوع الأول المنتقل عنه، كما في قوله تعالى: {وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ} [الحجر: من الآية ٨٥]، فهو فذلكة لقوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} (٢٣) {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} (٢٤) {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الحجر: الآيات ٢٣ - ٢٥]، حيث إنه ذكر مجموعة من الأمور بين جملة الفذلكة، والجمل التي جاءت إجمالاً لها. منها ذكر الوعيد للمجرمين، والبشارة للمتقين، وقصص الأنبياء مع أممهم للاتعاظ بحالهم، ثم عاد في سياق الكلام إلى حيث فارق مهيعه.^(٣)

٩. إن لابتداء جملة الفذلكة بحرف أو اسم أو فعل معين، ذو أهمية ودلالة كبيرة، وقد أشار إليها ابن عاشور في أكثر من موضع، كما في قوله تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: الآية ٨٨]، إذ قال: إن الكلام هنا جاء على طريق الفذلكة للإشارة إلى أحوال الهداية التي سبق ذكرها، واسم الإشارة هنا زاد الاهتمام أكثر بالهدي، إذ جعلها كالشيء المشاهد، فهذا من كمال التمييز لها.^(٤) وأيضاً قوله تعالى: {لَتَلَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [المائدة: الآية ٨٢]، إذ بين ابن عاشور

(١) التحرير والتنوير: ١٣١/٣-١٣٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٨-١٩٧.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٥٤/١٤، ٥٦، ٧٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٧/٣٥٠-٣٥١.

الاذلكة بين المفسرين والطاهر ابن عاشور: تعريف وتاصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

أن: "الآية فذلكة لخاصل ما نكنه ضمائر الفريقين نحو المسلمين، ولذلك فصلت، ولم تعطف. واللام في {لتجدن} لام القسم، يقصد منها التأكيد، وزادته نون التوكيد تأكيداً"^(١). ومنه أيضاً قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة: من الآية ٦٧]، فإن هذه الآية فذلكة للتي قبلها، وصيغة القصر فيها هو قصر ادعائي للمبالغة؛ لأنهم لما بلغوا في الفسوق جعل غيرهم كمن ليس بفاسق.^(٢)

١٠. تخصيص الفذلكة: إن أهم خصيصة تميز بها ابن عاشور عن غيره من المفسرين، هو أن الفذلكة عنده تأتي مخصصة في أكثر الأحيان، كفذلكة القصة، والتمثيل، والاستدلال، والخاصة، والجامعة، والغرض، والنتيجة؛ أو يكتفي بذكر أنها إجمال لما قبلها، وكل هذا يتحكم فيها، نوع الكلام المفصل.

١١. اقتران الفذلكة بالفنون الأخرى: يُعدّ اقتران الفذلكة عند ابن عاشور بمجموعة من الفنون البلاغية، كالتذييل، ورد العجز على الصدر، والاعتراض، والتفريع، والاستئناف من الخصائص التي تميز بها ابن عاشور عن غيره من المفسرين، ولعل سبب اقتران الفذلكة بهذه الفنون هو وجود خصائص ومميزات مشتركة بينها وبين الفذلكة، وسنبينها بالتفصيل في الفصل الثالث.

٢- أهمية الفذلكة وأغراضها عند ابن عاشور:

للفذلكة عند ابن عاشور أهمية كبيرة، وهي متأتية من أغراض عدة، يمكن إجمالها بما يأتي:

١. التوكيد والتركيذ على أهمية الموضوع:

تفيد الفذلكة التوكيد لما سبقها من الجمل.^(٣) وبيان المقصود منها، والتركيذ على أهمية، وعظم شأن كلمة أو عبارة ليست لها هذه الأهمية عادة.^(٤) والتوكيد يدخل في الكلام لإخراج الشك منها، وفي الأعداد لإحاطة الأجزاء.^(٥) ومثاله كثير عند ابن عاشور، منها قوله عز وجل: {أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: الآية ٢٨٥]، فتعدُّ هذه الآية تأكيداً وفذلكة لجميع ما دُكر من قبل في السورة.^(٦) وكذلك قوله تعالى: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ} [يونس: من الآية ٣]،

(١) التحرير والتنوير: ٥/٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٥٥/١٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/٢٢٨؛ ٢٩/١٨٤.

(٤) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: ١/١٠٦.

(٥) لسان العرب: ٣/٤٦٦.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير: ٣/١٣١.

فذلكة للجمل التي قبلها، وفيها تأكيد لمضمون جملة: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} [يونس: من الآية ٣]، وأيضاً قوله جل جلاله: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: الآية ٦]، إذ بيّن أن هذه الآية هي تذييل وفذلكة للكلام السابق بما فيها من التأكيدات.^(١)

٢. التعليل:

تفيد التعليل^(٢): وهو تقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر.^(٣) أي بيان السبب الذي من أجله سيق الكلام، أو أنها بمثابة الجواب للسؤال الذي قد ينشأ من سياق الكلام.^(٤) ومثاله قوله تعالى: {وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [البقرة: الآية ١٦]، فهي فذلكة للجمل السابقة، وكذلك تفيد تعليل مضمون جملة: {وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة: من الآية ١٥]، لأنها استئنافٌ بيانيٌّ لسائل عن العلة.^(٥)

٣. التذكير والتنبيه والإرشاد:

بما أن الفذلكة هي إجمال لأمر قد فُصِّل مسبقاً، فإن جملة الفذلكة قد تخرج لأغراض بلاغية كالتذكير، والتنبيه، والإرشاد، وذلك للإشارة إلى أهمية الموضوع. مثاله: قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (١٢٢) وَأَنْقُذُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} [البقرة: الآيتان ١٢٢، ١٢٣]، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين الآيتين في صدر السورة، وأعاد ذكرهما هنا مع التقديم والتأخير في بعض الألفاظ، إذ بين ابن عاشور الغرض من إعادة التذكير، إذ يقول: "أعيد نداء بني إسرائيل نداء التنبيه والإنذار، والتذكير على طريقة التكرير في الغرض الذي سيق الكلام الماضي لأجله"^(٦). وأضاف ابن عاشور أنه عندما ذُكرت هاتان الآيتان في الصدر كان كذكر المطلوب في صناعة المنطق قبل إقامة البرهان، وعندما أعاد ذكرهما في العجز كانت كذكر النتيجة في المنطق، عقب البرهان، فكانت فذلكة وتأييداً وتنبيهاً لما تقدم.^(٧)

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٥٨٤/٣٠.

(٢) العلة في اللغة السبب. ينظر: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، د محمود عبد الرحمن عبد المنعم، ت، ن: دار الفضيلة. ٤٧٥/١.

(٣) التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين (ت ٨١٦هـ) تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. ٦١:

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢١ / ١٩.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩٧/١.

(٦) التحرير والتنوير: ٦٩٧/١.

(٧) ينظر: التحرير والتنوير: ٦٩٨/١.

الفضلعة بين المفسرين والطاهر ابن عاشور: تعريف وتاصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

ومثاله أيضاً قوله تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَهَؤَآءًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} [الإسراء: الآية ٢٠]، فهذه الآية: "فضلعة للتببيه على أن الله تعالى لم يترك خلقه من أثر رحمته، حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون ببقائه، فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة".^(١)

٤. الموعظة والترغيب:

وقد تكون الغاية من جملة الفضلعة هي الموعظة والترغيب لأمر ما، مثاله قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: الآية ٣٢]، إذ إن هذه الآية تعد عودة إلى الموعظة المتقدمة بطريقة الإجمال، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد بدأ هذه الموعظة عند قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتَابُونَ وَنَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: الآيات ١٠ - ١٢]، تضمنت هذه الآيات ترهيباً للكفار من عقاب الله، ثم ذكر مقابل الترهيب، الترغيب في ثواب الله وجناته وما فيها من نعيم، وهو قوله تعالى: {قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: الآية ١٥]؛ ثم عاد بعد ذلك إلى ترغيب الكفار فذكر جملة الفضلعة {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: الآية ٣٢]، ليتعظوا، وليعلموا أن أموالهم وأولادهم لا تنفعهم ولا تنجيهم من عذاب الآخرة، وأن خلاصهم هو في طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.^(٢)

ومن أمثلة هذا النوع من الغرض هو قوله تعالى: {سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: الآية ٢١]، إذ قال ابن عاشور عن هذه الآية بأنها: "فضلعة لما تقدم من قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الحديد: الآية ١٢]، إلى هنا مسوق مساق الترغيب فيما به تحصيل لنعيم الآخرة، والتحذير من فواته، وما يصرف عنه من إيثار زينة

(١) التحرير والتنوير: ٦٢/١٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢٨-٢٢٩.

الدنيا، ولذلك فُصِّلت الجملة، ولم تعطف، واقتصر في الفذلكة على الجانب المقصود ترغيبه دون التعرض إلى المحذر منه لأنه المقصود".^(١)

٥. بيان المقصود من الكلام:

ومن أغراض الفذلكة أيضاً أنها قد تأتي لبيان المقصود من الكلام، وتوضيحه، مثاله قوله تعالى: {ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} [الأحزاب: من الآية ٤]، فهذا القول جاء فذلكة لقوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} [الأحزاب: من الآية ٤]، فوُجعت في سياق إبطال مزاعم المشركين في ثلاثة أمور:

الأول: بوجود قلبين لرجل واحد في جوفه.

والثاني: في نفي كون المرأة كام الرجل بالمظاهرة.

والثالث: في إبطال التبني.

فهذه المزاعم مجرد أوهام ليس لها رصيد في واقع الحياة، لذلك جاءت نهاية الآية فذلكة لأنها تنزل منزلة البيان بالتحصيل لما قبلها^(٢).

٦. الاستدلال:

إنها تفيد الاستدلال: والاستدلال. يقصد به: استنتاج قضية من قضية أخرى، أو استنتاج قضية من قضايا أخرى.^(٣) وقيل هو تقرير الدليل؛ لإثبات المدلول سواء كان ذلك من الأثر إلى المؤثر أو العكس أو من أحد الأثرين إلى الآخر.^(٤) ومثال الاستدلال عند ابن عاشور، هو قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: الآية ٨٢]، إذ بين أن هذه الآية: "فذللكة الاستدلال، وفصل المقال، فذللكة فصلت عما قبلها، كما تفصل جملة النتيجة، عن جملتي القياس، فقد نتج مما تقدم أنه تعالى إذا أراد شيئاً تعلقت قدرته، بإيجاده بالأمر التكويني المعبر عن تقريبه بـ(كن)، وهو أخصر كلمة تعبر عن الأمر بالكون، أي الاتصاف بالوجود".^(٥)

ومثاله أيضاً: قوله تعالى: {كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق: من الآية ١١]، فعندما بدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بتكذيب المشركين بالبعث، استدلل عليهم بأمر محسوس بخلق الأرض، وإيجاده من العدم،

(١) التحرير والتنوير: ٤٠٧/٢٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٥٨-٢٥٩/٢١.

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة: ٧٦٣/١.

(٤) التعريفات: ٦١.

(٥) التحرير والتنوير: ٧٩/٢٣.

الفذلكة بين المفسرين والطاهر ابن عاشور: تعريف وتأسيس

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

وإنبات الزرع فيها، وكذلك تجلت قدرته بإنزال الماء المبارك من السماء، ليحيي به الأرض بعد موتها، فالذي خلق وأنبت، أليس بقادر على إعادة خلقها من جديد؟! لذلك جاءت جملة الفذلكة {كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} للاستدلال على إمكان البعث والنشور بعد الموت.^(١)

٧. زيادة التشويق:

للإجمال بعد التفصيل وقع في النفوس، زيادة في التشويق. وذلك لأنها تعمل على إظهار ما فُصِّلَ من الكلام بحلة جديدة موجزة، بأسلوب جديد بعيداً عن التكرار، كما في قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} [البقرة: الآية ١٧]، إذ قال عنها: "أعقبت تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة، بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة، وهذه طريقة تشبيه التمثيل، إلحاقاً لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة؛ لأن النفس إلى المحسوس أميل .

وإتماماً للبيان بجمع المنفرقات في السمع، المطالعة في اللفظ، في صورة واحدة لأن للإجمال بعد التفصيل وقعاً من نفوس السامعين. وتقريراً لجميع ما تقدم في الذهن بصورة تخالف ما صُوِّرَ سالفاً؛ لأن تجدد الصورة عند النفس أحب من تكررها^(٢). فلأجل هذا الكلام وقعت هذه الآية موقع البيان والتقرير والفذلكة لما قبلها.

٨. دفع توهم الحساب:

من فوائد الفذلكة، أنها تأتي لدفع التوهم في الحساب، أو لدفع توهم التخيير، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِمَّنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: الآية ١٩٦]. وذلك بأن تكون الواو بمعنى أو، فيتخير بين أحدهما، فبين الله سبحانه وتعالى ما يدفع هذا التوهم، بإجمال العديدين، وأضاف إليها قوله تعالى {كاملة} لزيادة التأكيد على صومها.^(٣)

٩. الإشارة إلى محل الاعتبار:

وقد يكون الغرض من جملة الفذلكة، هو الإشارة إلى محل الاعتبار من التفصيل الذي يسبق الفذلكة، مثاله: قوله تعالى: {فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَفْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: الآية ١٣٦]، قال ابن عاشور فيها: بأن هذا محل العبرة من القصة، وذكر أنه

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/٢٩٣-٢٩٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١/٣٠٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/٢٢٩.

مفرع عليها تفريع النتيجة على المقدمات، والفضلكة على القصة، فبعد أن وصف الله تعالى عناد فرعون وملئه، وتكذيبهم رسالة موسى واقتراحهم على موسى أن يأتي بآية، ومشاهدتهم الآيات التي بعث الله بها موسى من انقلاب العصا ثعباناً، وتغيير لون يده، وتكذيبهم لموسى وعدّه ساحراً، ولكن بعد أن تغلب موسى عليهم، ابتلاههم الله بمصائب جعلها آيات على صدق موسى، وعدوا موسى بالإيمان وإطلاق سراح بني إسرائيل معه، فلما كشف عنهم الرجز نكثوا، فأخبر الله بأن ذلك كان سبباً باستئصال المستكبرين المعاندين، وتحرير المؤمنين من ظلم فرعون وملئه، وذلك محل العبرة، فلذلك كان الموقع في عطفه لفاء الترتيب والتسبب^(١).

١٠. تلخيص المقصود:

وقد يكون الغرض من الفضلكة تلخيص المقصود من التفصيل، أو تخلصاً للغرض المقصود من التفصيل. فمثال الأول: هو قوله تعالى: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: من الآية ٨٢]، إذ إنها تعد فضلكة لقصة العبد الصالح مع موسى، لتكون هذه الفضلكة تلخيصاً للمقصود من القصة، كتلخيص المدرس لأهم نقاط الدرس في نهايته، وسماه ابن عاشور بالحوصلة^(٢).

ومثال الثاني: قوله تعالى: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [طه: الآية ٤١]، فبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى عدد المرات التي امتن بها على موسى ابتداءً من إلقاء أمه له في اليم، ومروراً بإنجائه من قتله للقبطي، وانتهاءً بمنه عليه باصطفائه برسالته، جاءت هذه الآية {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} فضلكة: "وهو تخلص بديع إلى الغرض المقصود، وهو الخطاب بأعمال الرسالة المبتدأ من قوله: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} [طه: ١٣] ومن قوله: {إِذْ هَبْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه: ٢٤]. والاصطناع: صنع الشيء باعتناء. واللام للأجل، أي لأجل نفسي. والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئاً لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه"^(٣).

١١. التنويه:

تأتي جملة الفضلكة للتنويه بصورة مجملة على تفصيل مسبق، وذلك لأهمية الأمر، مثاله قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: الآية ٨٩]، تُعدُّ هذه الآية استئنافاً ابتدائياً للتنويه بشأن الأنبياء الذين ذُكروا في قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلِّ

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٧٤/٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/١٦.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢٣/١٦.

الفذلكة بين المفسرين والظاهر ابن عاشور: تعريف وتأصيل

إلهام عبد الكريم محمد

أ.د. محمد إسماعيل محمد المشهداني

مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنَ آبَائِهِمْ
وَدُرِّيَّاتِهِمْ وَأَخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَاتِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { [الأنعام: الآيات ٨٤ - ٨٧]، ودلالة

اسم الإشارة هنا هو لزيادة الاعتناء بتمييزهم، وإخطار سيرتهم في الأذهان. (١)

ومثاله أيضاً قوله تعالى: {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَأْسًا} [النبأ: الآية ٣٩]، بين ابن
عاشور أن الآية هي "فذللكة لما تقدم من وعيد ووعد، إنذار وتبشير، سيق مساق التنويه بـ{يَوْمَ
الْفَصْلِ} [النبأ: من الآية ١٧] الذي ابتدأ الكلام عليه من قوله: { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} [النبأ:
الآية ١٧]. والمقصود التنويه بعظيم ما يقع فيه من الجزاء بالثواب والعقاب، وهو نتيجة أعمال
الناس من يوم وجود الإنسان في الأرض". (٢)

١٢. التسلية:

قد تكون الغاية من جملة الفذلكة هو تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كقوله تعالى:
{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: الآية ١١٢]، فبعد أن فصل الله سبحانه وتعالى
القول في تمادي الكفار في كفرهم، وعدم تصديقهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعد ظهور
الحجج الدامغة لهم ابتداءً من قوله تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا
قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ
كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ
الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}
[الأنعام: الآيات ١٠٩ - ١١١]؛ جاء قول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ
وَالْجِنِّ ...} الآية اعتراضية بمنزلة الفذلكة لما تقدم، كان القصد منها تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لا
وآله وسلم، فبعد أن أحزنه تصلب قومه في نبذ دعوته، أنبأه الله بأنه ليس الوحيد بين الأنبياء، لا
يؤمن له قومه؛ بل أن هذه السنة من سنن الله تعالى في ابتلاء أنبيائه كلهم، فما منهم أحد إلا كان
له أعداء وخصوم. (٣)

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٥٢/٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٥٣/٣٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٨-أ/٨.

١٣. التعجيب:

قد يكون من دلالات وأهداف الفذلكة، هو التعجيب من أمر عظيم، ومعنى التعجب: هو استعظام أمر، أو إنكاره لغرابته، أو هو الأمر الذي يثير الدهشة^(١) ومثاله قوله تعالى: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: الآية ٣٣]، فبعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى قدرته التي تجلّت في كل شيء لإبطال أفانين الشرك، وإثبات وحدانيته ابتداءً من قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَازَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: الآيتان ٣١، ٣٢]، جاء بهذه الآية لتكون فذلكة وتذبيلاً للتعجيب من استمرارهم على الكفر بعد أن رأوا قدرة الله سبحانه وتعالى، كذلك بعد ما ظهر لهم من الحجج والآيات^(٢). ومثاله أيضاً قوله تعالى: {هَلْ تُؤْتِي الكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين: الآية ٣٦]، تُعدّ هذه الآية فذلكة لما فصله الله سبحانه وتعالى من الاعتداء الذي حصل للمؤمنين من المشركين، وأن ما فعلوه لن يذهب سدى؛ بل سيعاقبهم الله تعالى في يوم القيامة، فكانت الآية تعجيباً من أن المشركين كيف لم يفلتوا من العقاب، ولو بعد مضي دهور عليها، و{هل} هنا استفهام يفيد التقرير.^(٣)

(١) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: ١٤٥٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١١/١٥٩.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٢١٥.

الخاتمة

بعد ذكر التعريفات اللغوية والاصطلاحية للفذلكة وبيان أقوال العلماء فيها عموماً، وموقف ابن عاشور منها خصوصاً نستنتج ما يأتي:

١. إن الأصل في استعمال الفذلكة هو حاصل الحساب ونتيجته، ثم أُطْلِقَ لفظ الفذلكة على كل ما هو نتيجة متفرعة على ما سبق حساباً كان أو غيره. أي أن معنى الفذلكة لا تقتصر على إجمال ما فُصِّلَ من الكلام، بل يراد بها أيضاً النتيجة لما سبق من الكلام والتفريع عليه، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤]، وهو فذلكة التقرير والتفريع عليه.

٢. إن تعريف الفذلكة في اللغة يتطابق مع التعريف الاصطلاحي، وهو أصله، وهو إجمال ما فُصِّلَ من الكلام وخلصته ونتيجته، وسواء أكان هذا الإجمال في الحساب أو في العلوم الأخرى، وإن كان له استعمال آخر عند العامة يقرب من استعمالهم للفظ الفلسفة، أي بمعنى أنه تلاعب بالكلمات موهماً صدق حديثه، أي لم يستطع إقناع خصمه رغم تفذلكه في الكلام.

٣. إن كلمة الفذلكة كلمة منحوتة من قولهم: (فذلك كذا وكذا)، ك(بَسَمَلٍ) من (بِسْمِ اللَّهِ)، و(حَمْدَلٍ) من (الحمد لله)، و(سَبْحَلٍ) من (سبحان الله)، ويجمع على (فَذَالِكِ). مع ملاحظة الفرق بين اسم الإشارة (فذلك) مع أصل كلمة (فذلك) عند جمع الفذلكة من دخول الألف بين الذال واللام، وكذلك ينبغي أن نُفَرِّقَ بين قولنا (فذلك) بعد دخول (الفاء) على اسم الإشارة (ذلك) من (فذلك) عند قولنا (فذلك الحساب) أن الفاء في الأخيرة من أصل الكلمة.

٤. لقد اختلف العلماء فيما بينهم في أصل كلمة الفذلكة، هل هي قديمة وُجِدَتْ عند العرب أم مولدة لم تُسَمَّعْ في كلامهم؟. وقد ذكر بعضهم أن الكلمة وجدت عند ابن النديم بمعنى نهاية التأليف وحصيلته. ويُعَدُّ الزمخشري أول من استخدم مصطلح الفذلكة في تفسيره لكن دون توضيح معناها. والطبيي أول من عرّفها.

٥. ضرورة التفرقة بين الفذلكة التي هي بمعنى: إجمال ما فُصِّلَ من الكلام وخلصته ونتيجته، وبين معنى الإجمال عند أهل الأصول الذي هو: المبهم، أو الذي لا يُعَقَّلُ معناه، ولا يُدْرَكُ مقصود الالفاظ ومبتغاه، أو هو (ما لم تتضح دلالاته)، والذي يكون نقصاً في البيان البليغ، فلا يمكن أن نتصور وجوده فيهما؛ لأن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وردا ليكونا بيانياً للناس، وتبياناً لكل شيء بأبلغ وجه؛ وإنما المقصود هنا بالإجمال: مجمله أي: مجموعته، فهو من الإجمال بمعنى الجمع ضد التفريق، لا من الإجمال ضد التفصيل والبيان.

والإجمال واقع بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بالإجماع، ولم يشذ عنه سوى داود الظاهري، مدعيًا أن الإجمال بدون البيان لا يفيد، وفيه تطويل، ولا يقع في كلام البلغاء، فضلاً عن كلام الله

سبحانه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. فإن كان المقصود من وقوع الإجمال بمعنى الجمع ضد التفريق، فهذا هو معنى الفذلكة الذي نحن بصدد البحث عنها؛ وإن كان المقصود من الإجمال بمعنى الإبهام أو عدم الدلالة، فإن كان موجوداً فلا يتعلق به تكليف؛ لأنه إما أن يقع بيانه بالقرآن الصريح، أو بالحديث الصحيح، أو بالإجماع القاطع، لأن الإجمال إما متعلق بما لا ينبني عليه تكليف، وإما غير واقع في الشريعة.

فوقوع أمر ما على سبيل الإجمال، إذا جاز وقوعه في الشريعة، فلا يخلو إما أن يكون في الكتاب، وتفصيله يكون في السنة، أو بالعكس. وعلى هذا فالفذلكة المقطوع بوقوعها في القرآن الكريم، هو الإيجاز بعد التفصيل، وليس الإيجاز المخلّ الذي ما لم تتضح دلالاته.

٦. هناك فرق بين الفذلكة التي هي إجمال بعد تفصيل، ويُسمى أيضاً بـ(محصل الكلام)، وبين التفصيل بعد الإجمال والذي يسمى بـ(حاصل الكلام). فمن الأول قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٦]. ومن الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: من الآية ٣٦]. ففي الآية الأولى وقع الإجمال بعد التفصيل؛ في حين جاء الإجمال في الآية الثانية قبل التفصيل.

٧. بلغ عدد المواضع التي ذكر فيها ابن عاشور الفذلكة أكثر من مئة موضع، ووجدنا أنها قد حملت خصائص ومميزات كثيرة، ووظائف وفوائد عديدة في سياق الكلام، فضلاً عن أنها تعطي للكلام جمالاً ورونقاً، وأن وجودها ليس اعتباطياً - كما يظن البعض.

٨. من أبرز خصائص الفذلكة عند ابن عاشور أنها إجمال لما سبقها من تفصيل، وقد تكون مقدمة لما بعدها، والأصل فيها أن تبدأ باسم الإشارة (ذلك)، ولكنها قد تبدأ بغير ذلك بما يناسب تناسق المعاني والسياق، وقد تأتي الفذلكة إجمالاً لسورة كاملة، أو لمجموعة من آياتها، أو لآية أو جملة قبلها، وقد تأتي جواباً لسؤالٍ ما يتضمنه سياق الكلام، وكثيراً ما تأتي للفصل بين غرضين، وقد تأتي للتخصيص، فضلاً عن مجيئها مقترنة بالفنون الأخرى.

٩. للفذلكة عند ابن عاشور أهمية كبيرة، وهي متأتية من أغراض عدة، يمكن إجمالها بالتوكيد والتركيز على أهمية الموضوع، والتعليل، والتذكير والتنبيه والإرشاد، والموعظة والترغيب، وبيان المقصود من الكلام، والاستدلال، وزيادة التشويق، ودفع توهم الحساب، والإشارة إلى محل الاعتبار، وتلخيص المقصود، والتنويه، والتسلية، والتعجيب.

إذن نستنتج من هذا كله أن لفظ (الفذلكة) - وإن كانت قديمة - إلا أنها لم تكن مشهورة بين العلماء بمختلف اختصاصاتهم، فضلاً عن علماء التفسير، ولم تكتمل ملامح هذا المصطلح وتبرز أهميته وتظهر خصائصه إلا على يد الطاهر ابن عاشور.